المباهاة الإلهية بالصالحين من البشرية

يحي أحمد زكريا علي الشامي

أولًا:ماهية المباهاة ومواطنها في الوحيين

أولاً: المباهاة في اللغة والاصطلاح

تُعرف المباهاة في اللغة بأنها المفاخرة وإظهار البهاء والحسن (1)، أما في الاصطلاح الإلهي فهي إظهار الرب عز وجل فضل عباده لملائكته وتنويهه بطاعتهم (2). والمباهاة من البشر تنقسم إلى مباهاة مذمومة وهي "الفخر" بالكبر والتعالي (3)، ومباهاة محمودة وهي "العزة" بإظهار قوة الدين ونكاية العدو.(4)

ثانياً: مواطن المباهاة الإلهية بالعباد

يباهي الحق سبحانه بعباده في مواطن العبودية المحضة التي يتحرر فيها العقل من قيود الهوى والجمود، ومنها:

* أهل عرفة: حين يجتمعون شعثاً غبراً في مشهد تجرد كامل.(5)

* أهل الذكر: الذين اجتمعوا على مائدة الوحي حامدين شاكرين.(6)

* قائم الليل: الذي هجر لحيظات النوم والراحة رغبةً في القرب.(7)

* الشاب العفيف: الذي قهر شهوته في عنفوانها إرضاءً لخالقه.(8)

* المجاهد الصابر: الذي ثبت في الميدان حين عزّ الثبات.(9)

ثالثاً: مواطن المباهاة النبوية (المحمودة)

باهى النبي ﷺ بأمته وبأفعال أصحابه في سياق التشريع والاعتزاز بالحق، ومنها:

* المباهاة بالكثرة: فخراً بكثرة الأتباع المستمسكين بالهدى يوم القيامة.(10)

* المباهاة بالبسالة: وإقرار "الخيلاء" في موطن الحرب لكسر شوكة الباطل.(11)

(1)لسان العرب: مادة (بهى)، البهاء: الحسن، وباهى بفلان: فاخر به وأظهر فضله.

(2)تفسير القرطبي: في قوله تعالى {إني جاعل في الأرض خليفة}، المباهاة هنا رد عملي على قول الملائكة، لإظهار كمال الحكمة في خلق الإنسان.

(3)سورة النساء، آية 36: {إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً}، الفخور: الذي يعدد مناقبه تعاظماً لا شكراً.

(4)سورة يونس، آية 58: {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا}، الفرح هنا اعتزاز بالمنعم لا بالذات.

(5)مسند أحمد: "إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء"، التفسير: إظهار تذللهم لله رغم مشقة السفر وتعب البدن.

(6)صحيح مسلم: "أخبرني (جبريل) أن الله يباهي بكم الملائكة"، قيل في التفسير: يباهي بصبركم على الطاعة واجتماعكم على الحق.

(7)مسند أحمد: "عجب ربنا من رجل ثار عن بساطه ولحافه.."، العجب والمباهاة هنا لمخالفة النفس في أشد أوقات حاجتها للراحة.

(8)الجامع الصغير للسيوطي: "إن الله ليباهي بالشباب العابد"، التفسير: لأن الشباب مظنة غلبة الشهوة، فكان تركه لها مباهاة عظيمة.

(9)سنن أبي داود: "ضحك ربنا من رجل غزا في سبيل الله.."، الضحك والمباهاة هنا علامة الرضا عن الصدق في البذل.

(10)سنن النسائي: "تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأنبياء"، التفسير: المكاثرة هنا مباهاة بنجاح الرسالة وامتداد أثر الهداية.

(11)المستدرك للحاكم: "إن من الخيلاء ما يحب الله.. عند الحرب"، التفسير: مباهاة لإظهار القوة وإرهاب العدو، وهي مستثناة من تحريم الكبر.

ثانيًا: نماذج المباهاة الإلهية بعباده

1. المباهاة بأهل عرفات

وهي المباهاة العظمى في المشهد الذي تتجلى فيه عبودية التذلل والافتقار.

* الدليل من السنة: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي مَلَائِكَتَهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ بِأَهْلِ عَرَفَةَ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي أَتَوْنِي شُعْثًا غُبْرًا» (رواه أحمد).

2. المباهاة بحلق الذكر

حيث يجتمع المؤمنون لتحرير عقولهم وقلوبهم بذكر الله ومدارسة وحيه.

* الدليل من السنة: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ.. (إلى أن قال): فَإِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي: «أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ» (رواه مسلم).

3. المباهاة بالشاب العابد (العفيف)

وهي مباهاة بالارادة الإنسانية حين تنتصر على عنفوان الشهوة وجمود الهوى.

* الدليل من السنة: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيُبَاهِي الْمَلَائِكَةَ بِالشَّابِّ الْعَابِدِ، يَقُولُ: يَا أَيُّهَا الشَّابُّ التَّارِكُ شَهْوَتَهُ لِأَجْلِي، الْمُبْتَذِلُ شَبَابَهُ لِي، أَنْتَ عِنْدِي كَبَعْضِ مَلَائِكَتِي» (رواه الديلمي في مسند الفردوس، وذكره السيوطي في الجامع).

4. المباهاة بقائم الليل

وهي مباهاة بالصدق في القصد حين يتجرد العبد من الراحة المادية للقاء خالقه.

* الدليل من السنة: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ ثَارَ عَنْ بِسَاطِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عِبْدِي، قَامَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ؛ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي» (رواه أحمد).

5. المباهاة بالمنفرد بعبادته (الراعي في الجبل)

مباهاة بالعبادة الخالية من الرياء، حيث لا يراه إلا خالقه.

* الدليل من السنة: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَعْجَبُ رَبُّكَ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَظِيَّةِ الْجَبَلِ، يُؤَذِّنُ بِالصَّلَاةِ وَيُصَلِّي، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا إِلَى عِبْدِي هَذَا يُؤَذِّنُ وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ يَخَافُ مِنِّي، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي وَأَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ» (رواه النسائي).

6. المباهاة بالمجاهد الصابر

وهي مباهاة بالثبات الفكري والعقدي في أحلك الظروف.

* الدليل من السنة: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ فَرَجَعَ حَتَّى أُهَرِيقَ دَمُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ: انْظُرُوا إِلَى عِبَدِي، رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي حَتَّى أُهَرِيقَ دَمُهُ» (رواه أحمد وأبو داود).

7. المباهاة بمنتظر الصلاة

* الدليل من السنة: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَغْرِبَ، فَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ، وَعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْرِعًا.. فَقَالَ: «أَبْشِرُوا، هَذَا رَبُّكُمْ قَدْ فَتَحَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ، يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي، قَدْ قَضَوْا فَرِيضَةً، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخْرَى» (رواه ابن ماجه).

* في المباهاة: ذكر الإمام القرطبي أن المباهاة من الله معناها التنويه بفضل العباد وإظهار كمالهم للملائكة، وليس مفادها الفخر الذي يعتري البشر، بل هي "ثبوت الرضا".

* رغبة ورهبة: تكرار هذه اللفظة في أحاديث المباهاة يؤكد أن التكريم الإلهي ينصب على "الحرية النفسية" التي تجعل العبد يختار خالقه رغباً ورهباً بخلاف الملائكة المفطورين على الطاعة.

ثالثاً: المباهاة بالصائمين (عمومًا وفي رمضان خصوصًا)

تعد مباهاة الله بالصائمين من أعظم صور التكريم الإلهي، لأن الصيام عبادة "سرية" بين العبد وربه، يترك فيها الإنسان مقتضيات طبيعته البشرية وقيود المادة (الطعام، الشراب، الشهوة) استجابة لأمر الخالق، وهذا هو جوهر التحرر العبادي من قيود الجسد.

1. مباهاة الله بصيام العباد في رمضان وحثهم على الخير

وهو المقام الذي يُظهر فيه الرب تبارك وتعالى للملائكة تنافس أهل الأرض في بلوغ رضوانه، ويحثهم النبي ﷺ على إرادة الجمال والكمال في هذا التنافس.

* الدليل من السنة: عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمًا وَحَضَرَ رَمَضَانُ: «أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرُ بَرَكَةٍ، يَغْشَاكُمُ اللهُ فِيهِ فَيُنْزِلُ الرَّحْمَةَ، وَيَحُطُّ الْخَطَايَا، وَيَسْتَجِيبُ فِيهِ الدُّعَاءَ، يَنْظُرُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى تَنَافُسِكُمْ فِيهِ، وَيُبَاهِي بِكُمْ مَلَائِكَتَهُ، فَأَرُوا اللهَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا، فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ فِيهِ رَحْمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» (1).

2. مباهاة الله بالصائم الذي يترك شهوته لأجله

وهي شهادة إلهية في الملأ الأعلى للمؤمن الذي كبح جماح نفسه، حيث يرفع الله ذكر عبده الذي تخلى عن "المادة" لأجل "الخالق".

* الدليل من السنة (الحديث القدسي): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، الصِّيَامُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» (2).

* موضع المباهاة: ورد في رواية أخرى صريحة تشرح هذا المعنى: «انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي».

3. تزيين الجنة للصائمين ونداؤه للملائكة بالبشرى لهم

يُصور هذا النص الاحتفاء الإلهي اليومي بالصائمين أمام سكان السماء، حيث يبشر الله جنته وملائكته بقرب قدوم العباد الذين تحرروا من أذى الدنيا ومئونتها.

* الدليل من السنة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُعْطِيَتْ أُمَّتِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْسًا لَمْ تُعْطَهُنَّ أُمَّةٌ قَبْلَهَا... (وذكر منها): وَيُزَيِّنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ يَوْمٍ جَنَّتَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: يُوشِكُ عِبَادِي الصَّالِحُونَ أَنْ يُلْقُوا عَنْهُمُ الْمَئُونَةَ وَالْأَذَى وَيَصِيرُوا إِلَيْكِ» (3).

(1) تخريج حديث (أروا الله من أنفسكم خيراً):

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (رقم 754) و"المعجم الأوسط" من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه. وقال المنذري في "الترغيب والترهيب": رواه الطبراني ورواته ثقات، وذكره الهيثمي في "مجمع الزوائد" وقال: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

* التفسير: (يغشاكم الله فيه) أي يحيطكم بالرحمة والستر، و(أروا الله من أنفسكم خيراً) هي دعوة للترقي الأخلاقي والعبادي ليكون العبد أهلاً للمباهاة أمام الملائكة.

(2) تخريج حديث (يترك طعامع وشرابه من أجلي):

أخرجه البخاري في "صحيحه" (كتاب الصوم، رقم 1894) ومسلم في "صحيحه" (كتاب الصيام، رقم 1151) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

* التفسير: الإضافة في قوله (فإنه لي) هي إضافة تشريف وتعظيم، ولأن الصوم "عمل باطني" لا يدخله الرياء، فالمباهاة فيه تقع على الإخلاص الذي حرر القلب من التعلق بغير الله.

(3) تخريج حديث (يوشك عبادي أن يستريحوا):

أخرجه الإمام أحمد في "المسند" (رقم 7917) والبيهقي في "شعب الإيمان" من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

* التفسير: (المئونة والأذى) هي أثقال الدنيا وشهواتها التي تعيق العقل والروح، والمباهاة هنا باستحقاق "الخليفة" للجزاء الأوفى بعد نجاحه في "المشهد التدريبي" في الدنيا

رابعًا: المباهاة بالأنبياء والرسل (وبسيدنا محمد ﷺ وأمته)

إن المباهاة بالأنبياء والرسل هي مباهاة بالكمال البشري في أسمى تجلياته، حيث باهى الله بعبوديتهم وصبرهم ويقينهم، كما باهى النبي ﷺ بأمته فخراً بتحقق وعد الله له.

1. المباهاة بالنبي ﷺ في مقام "قاب قوسين"

هذا المقام هو أعظم احتفاء كوني، حيث رُفع النبي ﷺ فوق رتب الملائكة المقربين ليراه أهل السماء في مقام لا يبلغه غيره.

* الدليل من القرآن: قال تعالى: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ} [النجم: 8-11].

* وجه المباهاة: تقديم النبي ﷺ في هذا المشهد هو مباهاة عملية من الله لملائكته بعبده الذي بلغ منتهى الكمال البشري واليقظة العقلية والروحية (1).

2. مباهاة النبي ﷺ بأمته يوم القيامة (المكاثرة)

وهي مباهاة نبوية أمام الأنبياء والأمم، اعتزازاً بكثرة من آمن به وتحرر بمنهجه من الوثنية والجمود.

* الدليل من السنة: عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وفي رواية: «فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (2).

3. مباهاة النبي ﷺ بأمته في كثرة السواد

مشهد رؤية الأمم حيث يفتخر النبي ﷺ بسواد أمته العظيم الذي سد الأفق.

* الدليل من السنة: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ..» (3).

4. المباهاة بسيادة النبي ﷺ يوم القيامة

وهو إعلان الفضل والجاه العريض أمام الأنبياء والملائكة والخلق أجمعين.

* الدليل من السنة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ» وفي رواية أبي سعيد الخدري زاد: «وَلَا فَخْرَ» (4).

5. مباهاة الملائكة بسعد بن معاذ (من آحاد الأمة)

وهي صورة من صور فخر النبي ﷺ بأتباعه الذين اهتز العرش لموتهم.

* الدليل من السنة: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «اهْتَزَّ العَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ»، وفي رواية: «هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ» (5).

(1) تفسير آيات سورة النجم: ذكر الإمام ابن كثير والبغوي أن "الدنو والتدلي" هو تشريف عظيم للنبي ﷺ لم يحظَ به ملك ولا نبي، وهو مباهاة بصدق قلبه {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ}، وهذا قمة "تحرير العقل" من الأوهام والخيالات ليرى الحقائق الكبرى عياناً.

(2) تخريج حديث المكاثرة والمباهاة: أخرجه الإمام أحمد في "المسند" (12613)، وأبو داود (2050)، والنسائي (3227)، وابن حبان (4028) وصححه الألباني.

* التفسير: المباهاة هنا هي مباهاة بالمنهج الذي أخرج هذا السواد العظيم من الظلمات إلى النور، وهو ما يغيظ المستبدين والملاحدة قديماً وحديثاً.

(3) تخريج حديث عرض الأمم: أخرجه البخاري (5705) ومسلم (220).

* التفسير: (السواد العظيم) كناية عن الكثرة الغالبة، والمباهاة هنا تظهر فضل النبي ﷺ على سائر الأنبياء من حيث أثر الدعوة واستجابة الناس لها.

(4) تخريج حديث السيادة: أخرجه مسلم في "صحيحه" (2278).

* التفسير: (ولا فخر) أي لا أقوله تكبراً بل تبليغاً لنعمة الله ومباهاة بفضله، فالسيادة هنا سيادة عبودية وكمال إنساني.

(5) تخريج حديث سعد بن معاذ: أخرجه البخاري (3803) ومسلم (2466)، والزيادة للنسائي في "السنن الكبرى".

* التفسير: اهتزاز العرش استبشاراً بالروح الطيبة، والمباهاة هنا تقع على من نصر الحق بعقله وماله وجسده حتى استحق هذا الاحتفاء السماوي.

خامسًا: ميادين التباهي المباح في العبادة والجهاد والحياة

لقد شرع الإسلام في مواطن مخصوصة إظهار القوة والجلد والافتخار بالحق، لا على سبيل الكبر والبطر، بل على سبيل إرهاب العدو وإظهار حيوية الأمة واستعلائها بالإيمان.

1. التباهي والجلد في الطواف والسعي (الرَّمَل)

شرع النبي ﷺ "الرَّمَل" (وهو الإسراع في المشي مع تقارب الخطى وهز الكتفين) في عمرة القضاء، ليباهي بأصحابه مشركي قريش الذين زعموا أن حمى يثرب قد أوهنتهم.

* الدليل من السنة: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ وَأَصْحَابُهُ، فَقَالَ المُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ وَفْدٌ قَدْ وَهَنَهُمُ الحُمَّى، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ الثَّلاَثَةَ، وَأَنْ يَمْشُوا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، وَقَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَرَاهُمُ اليَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً (وفي رواية: خَيْراً)» (1).

2. التبختر والخيلاء في ميادين الجهاد

الخيلاء في مشية الحرب هي تباهٍ مباح بل ومحبوب عند الله، لأنها تكسر نفسية العدو وتظهر الأنفة الإيمانية.

* الدليل من السنة: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَتِيكٍ رضي الله عنه، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللهُ، وَمِنْهَا مَا يَبْغَضُ اللهُ، فَأَمَّا الَّتِي يُحِبُّ اللهُ فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ، وَأَمَّا الَّتِي يَبْغَضُ اللهُ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ، وَإِنَّ مِنَ الْخُيَلَاءِ مَا يُبْغَضُ اللهُ، وَمِنْهَا مَا يُحِبُّ اللهُ، فَأَمَّا الْخُيَلَاءُ الَّتِي يُحِبُّ اللهُ، فَاخْتِيَالُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ عِنْدَ الْقِتَالِ، وَاخْتِيَالُهُ عِنْدَ الصَّدَقَةِ، وَأَمَّا الَّتِي يُبْغَضُ اللهُ فَاخْتِيَالُهُ فِي الْبَغْيِ وَالْفَخْرِ» (2).

* موقف تاريخي: حين تبختر أبو دجانة رضي الله عنه بين الصفين في أحد، قال ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْطِنِ» (3).

3. التباهي بنعمة الله وإظهار أثرها (الحياة)

أن يظهر الإنسان فضل الله عليه في ملبسه ومظهره دون كبر، ليعلم الناس سعة فضل الله.

* الدليل من السنة: عَنْ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي ثَوْبٍ دُونٍ، فَقَالَ: «أَلَكَ مَالٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، مِنْ كُلِّ الْمَالِ، قَالَ: «مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟» قَالَ: قَدْ آتَانِي اللَّهُ مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ، قَالَ: «فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ» (4).

(1) تخريج حديث (أراهم من نفسه خيراً): أخرجه البخاري (1602) ومسلم (1266) واللفظ للبخاري.

* التفسير: الرَّمَل في الطواف أصله مباهاة وإظهار قوة أمام الأعداء، ثم صار سنة مستمرة للأمة. وهذا يؤكد أن الإسلام يهتم بالهيبة النفسية للمؤمن ورفض صورة الضعف والهوان أمام الخصم، وهو جزء أصيل من "تحرير العقل من الاستبداد".

(2) تخريج حديث (الخيلاء التي يحب الله): أخرجه أبو داود (2648)، والنسائي (2558)، وأحمد (23075)، وصححه الألباني.

* التفسير: (الخيلاء عند القتال) هي مباهاة بالحق وشجاعة القلب. و(الخيلاء عند الصدقة) فسرها العلماء بأنها الاعتزاز بالعطاء وسرور النفس بالبذل دون منٍّ أو رياء، بل قوة نفس في مواجهة الشح.

(3) تخريج موقف أبي دجانة: أخرجه ابن إسحاق في "السيرة"، والبيهقي في "السنن الكبرى".

* التفسير: مشية التبختر في الحرب هي "مباهاة" بالمنعة والقداسة الإيمانية، وهي رسالة للمستبدين أن المؤمن لا ينكسر ولا يذل إلا لخالقه.

(4) تخريج حديث (ليُرَ أثر نعمة الله): أخرجه أبو داود (4063)، والترمذي (2006) وقال: حسن صحيح.

* التفسير: المباهاة هنا هي "تحدث بنعمة الله" {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}، وهي مباهاة محمودة لأنها تنسب الفضل للمنعم، وتخالف مسلك "الجمود" والزهد الكاذب الذي قد يظهر المسلمين بمظهر المسكنة المذمومة.

سادسًا: التباهي في حياة الأمة وأمجادها الحضارية

إن مباهاة الأمة الإسلامية بذاتها ليست فخراً عرقياً أو قومياً ضيقاً، بل هي مباهاة برسالة عالمية، وقيم أخلاقية، ونموذج حضاري لم تعرف البشرية له نظيراً في العدل والرقي.

1. المباهاة بالخيرية والشهود الحضاري

باهى القرآن الكريم هذه الأمة بجعلها خير الأمم، لا لمجرد الانتساب، بل لقيامها بوظيفة "تحرير العقل" والإصلاح الاجتماعي.

* الدليل من القرآن: قال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: 110].

* وجه المباهاة: هي الأمة الوحيدة التي جُعلت رسالتها "للناس" كافة، قائمة على الوحدة الإيمانية التي تذيب الفوارق الطبقية والاستبدادية (1).

2. المباهاة بعدالة النماذج القيادية (عدالة عمر أنموذجاً)

باهى التاريخ الإسلامي بنموذج "الدولة العادلة" التي لا يُظلم فيها ضعيف، والتي جسدها الفاروق عمر، فصار عدله أيقونة عالمية باهت بها الأمة سائر الحضارات.

* النص التاريخي: قول الهرمزان (رسول كسرى) لما رأى عمر نائماً تحت الشجرة دون حرس: «عدلتَ فأمنتَ فنمتَ يا عمر».

* موضع المباهاة: التباهي بأن السلطة في الإسلام ليست استبداداً، بل هي عقد أخلاقي يحقق الأمن بالعدل (2).

3. المباهاة بالإسهام العلمي والرقي الحضاري

باهت الأمة الدنيا حين كانت مساجدها جامعات، وعلمؤها يجمعون بين "نور الوحي" و"تجربة المادة"، فأنقذوا العقل البشري من خرافات القرون الوسطى.

* الأثر الحضاري: إرساء المنهج التجريبي في العلوم (الحسن بن الهيثم، جابر بن حيان) وتأسيس نظم المستشفيات والمكتبات العامة في وقت كانت فيه أوروبا تغط في الجمود (3).

4. المباهاة بأمجاد الأبطال والفتح الأخلاقي

لم تكن فتوحات الأمة توسعاً استبدادياً، بل كانت "تحريراً للشعوب" من طغيان الأكاسرة والقياصرة، وهو ما باهى به ربعي بن عامر أمام رستم.

* النص: «اللهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلامِ» (4).

5. ماذا خسرت البشرية بانحطاط المسلمين؟

إن غياب هذه الأمة عن منصة القيادة لم يكن خسارة للمسلمين وحدهم، بل كان كارثة إنسانية أدت إلى تغول المادية والالحاد والاستبداد الحديث.

* التشخيص: خسرت البشرية "التوازن" بين الروح والمادة، وحلّت شريعة الغاب محل شريعة الخالق، وسقط العقل في فخ التبعية للشهوة بدلاً من التبعية للحق (5).

(1) تفسير سورة آل عمران (110): ذكر الإمام الطبري أن خيرية الأمة مشروطة بالقيام بواجب الإصلاح (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). والمباهاة هنا تكمن في "الوحدة" التي حققها الإسلام، حيث جعل سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي نسيجاً واحداً يباهي به الزمان.

(2) تاريخ الطبري والبداية والنهاية: يُعد عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه المرجعية الأولى لمكافحة الاستبداد السياسي، حيث أرسى قواعد الشورى والمحاسبة، ومباهاتنا به هي مباهاة بمنهج "الإسلام القران والسنه" في تحرير الإنسان من تأليه الحكام.

(3) مقدمة ابن خلدون: ناقش فيها كيف أن الحضارة الإسلامية هي التي حفظت التراث البشري وطورته، مباهاةً بقدرة الإسلام على صياغة عقلية علمية لا تصطدم مع الإيمان، بل تنطلق منه.

(4) البداية والنهاية لابن كثير: مقولة ربعي بن عامر هي "بيان حقوق الإنسان" الأول، وهي مباهاة بالوظيفة التحريرية للإسلام، حيث نقل البشر من "الاستبداد السياسي والديني" إلى سعة الحرية المسؤولة.

(5) مرجع أساسي (أبو الحسن الندوي): في كتابه الشهير "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"، يوضح ببراعة أن انحطاط الأمة أدى إلى انتقال القيادة إلى أمم مادية أفسدت الأخلاق ودمرت البيئة وأشعلت الحروب العالمية، مما يجعل التباهي بعودة الأمة هو أمل للبشرية جمعاء.

سابعًا: المباهاة المذمومة والمنهي عنها (عقدة النقص والاستكبار)

تعد المباهاة المذمومة انحرافاً بالوظيفة الإنسانية، حيث يستعيض الإنسان عن "التكريم الإلهي" بتعظيم زائف للذات أو المادة، مما يؤدي إلى تبلد العقل وحجبه عن الخالق.

1. التباهي بالأنساب والأصول العرقية (الجاهلية المقنعة)

وهو المباهاة بالدم والجنس لا بالعمل والقيمة، وهو ما يهدم "الوحدة الإيمانية" ويورث الاستبداد العرقي.

* الدليل من السنة: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا، إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجُعَلِ الَّذِي يُدَهْدِهُ الْخِرْءَ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ» (1).

2. التباهي بالماضي مع الفشل في الحاضر

وهو نوع من "الجمود" الفكري، حيث يقتات العقل على أمجاد الأجداد بينما يرزح الحاضر تحت وطأة التبعية والجهل.

* المعنى الفلسفي: هو تحويل التاريخ إلى صنم يُعبد، بدلاً من كونه وقوداً للعمل، وهو ما حذر منه القرآن في قوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [البقرة: 134].

3. التباهي بالمال وتأليه العلم المادي (نموذج قارون)

وهو التباهي الذي ينسب الفضل للذات ويقطع الصلة بالمنعم، مما يؤدي إلى "طغيان المادة".

* الدليل من القرآن: قال تعالى على لسان قارون: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي}، فكان الجزاء: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ} [القصص: 78-81].

4. التباهي بالتبعية (الاستيراد) والتفاهات

وهو استلاب العقل الذي يباهي بتقليد الغالب في ملبسه ومستهلكاته (الاستيراد الثقافي والمادي) دون إنتاج، أو التباهي بتوافه الأمور وسفاسفها.

* الدليل من السنة: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا» (2).

5. التباهي بالمعاصي (المجاهرة)

وهو انسلاخ من الحياء ومن العبودية، حيث يباهي العبد بكسر أوامر الله.

* الدليل من السنة: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا» (3).

6. المباهاة بالعبادة على سبيل الرياء

وهي إفساد للروح بتحويل الطاعة إلى وسيلة للتكبر على الخلق، وهو "الشرك الأصغر".

* الدليل من السنة: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ» (٤)

(1) تخريج حديث الافتخار بالآباء: أخرجه الترمذي (3955) وأبو داود (5116) وحسنه الألباني.

* التفسير: (عُبِّيَّة الجاهلية) أي كبرها ونخوتها. المباهاة بالعرق هي أول مسمار في نعش "تحرير العقل"، لأنها تلغي قيمة "التقوى" و"الإنجاز الفردي".

(2) تخريج حديث معالي الأمور: أخرجه الطبراني في "الكبير"، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (1890).

* التفسير: التباهي بالتفاهات (السفساف) علامة على انحطاط الهمة وضياع بوصلة العقل المسلم.

(3) تخريج حديث المجاهرة: أخرجه البخاري (6069) ومسلم (2990).

* التفسير: المجاهرة بالمعصية هي "مباهاة إبليسية" تتحدى الفطرة، وتؤدي إلى تطبيع الاستبداد الشهواني في المجتمع.

(4) تخريج حديث الرياء: أخرجه البخاري (6499) ومسلم (2987).

* التفسير: الرياء هو مباهاة بالدين لأجل الدنيا، وهو قمة "الجمود والتقليد" لأنه يجعل العبد أسيراً لنظر الخلق بدلاً من نظر الخالق

ثامنًا: جذور التباهي المقيت (بين وهم العظمة وعقدة النقص)

إن التباهي المقيت ليس مجرد سلوك عابر، بل هو عرض لمرض نفسي وفكري عميق يضرب "مركز العقل"، وينقسم مصدره إلى تيارين متضادين في الظاهر، متفقين في النتيجة:

1. المصدر الأول: الاستكبار وتأليه الذات (الطغيان)

وهو الشعور بالعظمة الكاذبة الذي يحجب العقل عن رؤية الحقيقة وعن الخضوع للخالق، فيرى الإنسان نفسه فوق الخلق والقانون.

* من القرآن: قوله تعالى عن فرعون: {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ} [النازعات: 24]، وقوله عن المستكبرين: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف: 146].

* من السنة: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» (1).

* الفلسفة: هنا التباهي هو "تضخم للأنا" (Inflated Ego)، حيث يعتقد العقل أنه مصدر الفضل والقوة، وهو عين "تأليه العقل" الذي نناقشه في كتابنا.

2. المصدر الثاني: الإحساس بالنقص والدونية (التعويض النفسي)

وهذا هو المصدر الخفي والأخطر؛ فكثير من التباهي المقيت (كالتباهي بالماركات، أو الاستيراد، أو التفاخر بالنسب) هو في الحقيقة "قناع" لستر شعور عميق بالهوان وضعة الشأن.

* التشخيص النبوي: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ تَكَبَّرَ فِي نَفْسِهِ، أَوْ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ، إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ» (2).

* فلسفة النقص: يقول علماء النفس إن "الاستعلاء" غالباً ما يكون آلية دفاعية لتعويض نقص داخلي. فمن عجز عن تحقيق "بهاء" حقيقي في جوهره، استعاره من "بهرج" ثيابه أو أجداده أو ممتلكاته.

3. فلسفة وعقلانية التباهي (الميزان العقلي)

عقلانية التباهي تقتضي أن "الفخر" لا يكون إلا بما هو أصيل فيك ومستمر معك، والمال والجاه والنسب أمور عارضة لا تملكها حقيقة.

* الميزان القرآني: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ...} ثم عقب بالزوال: {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا} [الحديد: 20].

* العقل الحر: العقل المتحرر من الجمود يدرك أن المباهي بشيء غير كماله الأخلاقي والعبادي كالمباهي بـ "ثوب مستعار"؛ لذا فإن التباهي المقيت هو قمة "اللا عقلانية" (3).

(1) تخريج حديث (بطر الحق): أخرجه مسلم (91) من حديث ابن مسعود.

* التفسير: (بطر الحق) دفعه ورده كبراً، و(غمط الناس) احتقارهم. هذا الحديث ينسف فلسفة الاستبداد التي تقوم على احتقار المحكومين ورد الحقائق التي تخالف هوى المستبد.

(2) تخريج حديث (تكبر في نفسه): أخرجه الإمام أحمد في "المسند" (5954) والحاكم في "المستدرك" وصححه، من حديث ابن عمر.

* التفسير: التكبر في النفس هو حالة باطنية من "الإعجاب بالذات" (العُجب)، وهو ذريعة السقوط من عين الله ومباهاة الملائكة.

(3) التحليل الفلسفي نجد أن التباهي المقيت يُستخدم "كمبرر" لتسويغ الظلم؛ فالغني يباهي بماله ليبرر استعباد الفقير، والمستبد يباهي بقوته ليبرر قمع العقول. لذا فإن "تحرير العقل" يبدأ من كسر صنم التعالي.

تاسعًا: فصل النهي الإسلامي عن الكبر (تحجيم الأنا المتضخمة)

يعد الكبر في المنظور الإسلامي أخطر أمراض القلوب وأشد قيود العقل؛ لأنه يحجب الإنسان عن مقام العبودية ويجعله في حالة "منازعة" للخالق في خصائصه، مما يستوجب الطرد من رحمة الله ومن مقام المباهاة العلوية.

1. الكبر مانع من دخول الجنة ومن كمال الإيمان

لقد جعل الإسلام الكبر حاجزاً قطعياً بين العبد وبين مستقره في دار الكرامة، ولو كان هذا الكبر في أدنى مستوياته.

* الدليل من السنة: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ» (1).

2. الكبرياء حق خالص للخالق (المنازعة في الصفات)

إن الكبرياء صفة كمال لله وحده، فإذا استكبر العبد فقد نازع ربه في رداء كبريائه، وهذا هو جوهر "تأليه العقل" الذي نرفضه في بحثنا.

* الدليل من السنة (الحديث القدسي): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ» (وفي رواية: «عَذَّبْتُهُ») (2).

3. ذلة المتكبرين يوم القيامة (الجزاء من جنس العمل)

بما أن المتكبر يرى نفسه أعظم من الخلق، فإن الله يعاقبه يوم القيامة بأن يجعل حجمه المادي في غاية الضعة والذلة تحت أقدام الناس.

* الدليل من السنة: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى "بُولَسَ" تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ» (3).

4. التحذير القرآني من غطرسة المشي والقول

نهى القرآن الكريم عن المظاهر المادية للكبر التي تعكس خللاً في العقل والروح.

* الدليل من القرآن: قال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} [الإسراء: 37].

* الدليل من القرآن: قال تعالى على لسان لقمان: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [لقمان: 18]

(1) تخريج حديث (مثقال ذرة من كبر): أخرجه مسلم في "صحيحه" (رقم 91).

* التفسير: (مثقال ذرة) دلالة على أن الكبر يُفسد العمل مهما قلّ. والفرق الجوهري الذي أوضحه النبي ﷺ بين (التجمل المحمود) وبين (الكبر المذموم) هو أن الكبر يكمن في احتقار الآخرين (غمط الناس) ورفض الحق إذا جاء من جهة لا نهواها (بطر الحق)، وهذا هو أساس الاستبداد الفكري.

(2) تخريج حديث (الكبرياء ردائي): أخرجه أبو داود (4090)، وابن ماجه (4174)، وأحمد (248/2) وصححه الألباني.

* التفسير: ضرب المثل بالرداء والإزار لبيان أن هذه الصفات ملازمة للذات الإلهية ولا تصح لغيره، والمنازعة هنا تعني ادعاء العظمة الذاتية، وهي جذر "الألوهية المدعاة" لدى الطغاة عبر التاريخ.

(3) تخريج حديث (أمثال الذر): أخرجه الترمذي (2494) وقال: حديث حسن، والإمام أحمد في مسنده.

* التفسير: (أمثال الذر) أي كصغار النمل، وهذا تصوير بليغ لتحقير من استكبر في الدنيا؛ فمن تعاظم بنفسه صغَّره الله قدره حتى يطأه الخلق بأقدامهم، جزاءً وفاقاً لتعاليه على الحق.

(4) تفسير آية الإسراء: ذكر ابن كثير أن الآية تذكير للإنسان بضعفه الفيزيائي أمام عظمة الخلق، فكيف يستكبر من لا يخرق الأرض ولا يطال الجبال؟ إنها دعوة لتحرير العقل من "أوهام القوة" ليعرف قدره أمام الخالق.

عاشرًا: تحويل الكبر إلى عزة إيمانية (فلسفة الاستعلاء بالإيمان)

إن الإسلام لا يريد مسلماً ذليلاً منكسراً أمام الباطل، بل يريد عزةً تستمد قوتها من الله، لا من تضخم الأنا. فالفارق بين الكبر والعزة هو الفارق بين "عبادة الذات" و"الاعتزاز بالانتماء للخالق".

1. الفارق الجوهري بين الكبر والعزة

* الكبر: هو استعلاء بالباطل، ومصدره الإعجاب بالنفس (الأنا)، ويؤدي إلى احتقار الخلق ورد الحق.

* العزة: هي استعلاء بالحق، ومصدرها الاستناد إلى القوي العزيز (الله)، وتؤدي إلى التواضع للمؤمنين والشموخ أمام الطغاة والملاحدة.

2. العزة لله جميعاً (مصدر الاستمداد)

من أراد العزة من غير الله فقد طلب السراب، فالعزة لله ملكاً واستحقاقاً، ومنه تفيض على رسله وأتباعه.

* الدليل من القرآن: قال تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} [فاطر: 10].

* الدليل من القرآن: قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: 8].

3. "وأنتم الأعلون" (السيادة الفكرية والروحية)

في أحلك الظروف وأشدها استضعافاً، يأمر الله المؤمنين ألا يهنوا وألا يحزنوا، لأن قيمتهم مستمدة من إيمانهم لا من موازين القوى المادية.

* الدليل من القرآن: قال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران: 139].

4. ميزان التعامل: "أعزة على الكافرين أذلة على المؤمنين"

هذه هي المعادلة النفسية المتزنة التي جاء بها الإسلام لتحرير العقل من "الاستبداد"؛ فالمؤمن شامخ أمام قوى الكفر والظلم، هين لين ورحيم مع إخوانه في العقيدة.

* الدليل من القرآن: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: 54].

* الفلسفة: هنا "الذلة" للمؤمنين هي رحمة وتواضع (تواضع الكبار)، و"العزة" على الكافرين هي منع ومنعة (شموخ الأحرار).

(1) تفسير سورة فاطر (10): ذكر الإمام ابن كثير أن من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة، فليلزم طاعة الله، فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعاً.

(2) تفسير سورة المنافقون (8): هذه الآية نزلت رداً على قول ابن أبيّ سلول (ليخرجن الأعز منها الأذل)، فبين الله أن العزة الحقيقية هي للمؤمنين الموصولين بالله، ولو كانوا في ظاهر الأمر مستضعفين، فالعزة "حالة نفسية ويقينية" قبل أن تكون مادية.

(3) تفسير سورة آل عمران (139): (وأنتم الأعلون) أي لكم العاقبة والنصرة بالروح والحجة، والمباهاة الإلهية هنا تقع على من ثبت على إيمانه رغم الجراح، وهو ما يحرر العقل من الانهزامية النفسية أمام الحضارات المادية.

(4) تفسير سورة المائدة (54): قال الحسن البصري: "أذلة على المؤمنين" أي بمنزلة الوالد لولده، و "أعزة على الكافرين" أي كالأسد على فريسته. وهذا هو كمال التوازن الذي يحرر الإنسان من "الجمود" والتبعية الذليلة.

((الحادي عشر)): حاجة الأمة لبث روح العزة الإيمانية في عصر الاستضعاف

إن الأمة اليوم تواجه حملات منظمة من "الإذلال النفسي" و"التهميش الحضاري"، مما أدى إلى تسرب الهزيمة النفسية لجيل الشباب. والحل ليس في الانكفاء، بل في بعث "روح اليقين" واستحضار النماذج التي قلبت موازين التاريخ بالصدق والإيمان.

1. الاستعلاء بالإيمان في مواجهة الاحتقار العالمي

حين يرى المسلم نفسه مهمشاً في النظام الدولي، عليه أن يستحضر أن قيمته ليست مستمدة من "مجلس الأمن" أو "المنظومات المادية"، بل من كونه يحمل "الحق المطلق".

* النموذج القرآني: قال تعالى ليثبت قلوب الفئة القليلة: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 249].

* روح اليقين: إن اليقين بأن الغلبة للحق هو الذي يحرر العقل من قيود "الجمود" أمام هيبة القوة المادية (1).

2. بث روح الأمل والصدق (تجديد الدماء)

تحتاج الأمة إلى استعادة الثقة بأنها "أمة ولود"، وأن بذور العزة كامنة في وجدانها، تنتظر فقط "صدق التوجه".

* الدليل من السنة: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمَّتِي كَالْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَوْ آخِرُهُ» (2).

* الدليل من السنة: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالرِّفْعَةِ، وَالدِّينِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ» (3).

3. مواجهة التهميش بالشهود الحضاري (نموذج الفتية)

الشباب المسلم اليوم كـ "فتية الكهف"؛ قلة في مجتمع مادي ملحد أو مستبد، لكن عزة إيمانهم جعلت الله يخلد ذكرهم ويباهي بهم.

* النموذج القرآني: {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا} [الكهف: 13-14].

* موضع المباهاة: "الربط على القلوب" هو الثبات النفسي الذي تحتاجه الأمة الآن أمام زلزال الإلحاد والاستبداد (4).

4. فلسفة اليقين: "لا يضرهم من خذلهم"

بث روح العزة يقتضي إعداد جيل لا يستوحش طريق الحق لقلة السالكين، ولا ينكسر أمام خذلان القريب أو بعيد.

* الدليل من السنة: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ» (5).

(1) تفسير سورة البقرة (249): يوضح ابن كثير أن العزة ليست بالعدد والعدة فحسب، بل بـ "المعية الإلهية" التي تنزل على الصابرين الصادقين. وهذا يحرر عقل الأمة من اليأس أمام الفوارق المادية الكبيرة مع الخصوم.

(2) تخريج حديث (أمتي كالمطر): أخرجه الترمذي (2869) من حديث أنس، وصححه الألباني.

* التفسير: الحديث يفتح باب الأمل واسعاً؛ فكما أن المطر يحيي الأرض بعد موتها، فإن روح العزة قادرة على إحياء الأمة في "آخرها" كما أحيتها في "أولها".

(3) تخريج حديث (بشر هذه الأمة بالسناء): أخرجه الإمام أحمد في مسنده (21222) من حديث أبي بن كعب، وصححه الحاكم والذهبي.

* التفسير: (السناء) هو الضياء والرفعة. وهذا "وعد نبوي" قاطع بالتمكين، وبثه في القلوب هو أكبر ترياق لسموم الإذلال والمهانة التي تُحاط بها الأمة.

(4) تفسير سورة الكهف (13-14): (وزدناهم هدى) دلالة على أن العمل باليقين يفتح آفاقاً جديدة من البصيرة والعقلانية الحرة. والربط على القلوب هو "الأمن النفسي" الذي يفتقده الإنسان المعاصر في ظل المادية الملحدة.

(5) تخريج حديث (لا يضرهم من خذلهم): أخرجه مسلم في "صحيحه" (1920) من حديث ثوبان.

* التفسير: (الظهور) هنا هو ظهور الحجة والمنعة النفسية، وهذا الحديث هو "دستور الثبات" للأمة في عصور "التهميش"، لتبقى عزيزة بمبادئها ولو تكالب عليها العالم.

الجزء الثاني

جوهر المباهاة

((اولا)): عالم ما قبل آدم.. خدعة "طاووس الملائكة" وسر المباهاة

اولا: الأرض قبل الإنسان (فساد الجن وقرار الخلافة)

قبل خلق آدم، كانت الأرض مسكناً للجن، فعاثوا فيها فساداً وسفكوا الدماء، مما استوجب تدخلاً ملكوتياً لتطهيرها.

* الحدث: أرسل الله جنداً من الملائكة لطرد مفسدي الجن إلى جزائر البحار ورؤوس الجبال.

* الدليل من القرآن: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 30].

* التفسير: لم يكن سؤال الملائكة اعتراضاً، بل كان "قياساً" على ما رأوه من إفساد الجن (1).

ثانياً: إبليس.. "الرباية الملكية" والتمثيل المتقن

في تلك الحروب، أُسر إبليس (وكان صغيراً) أو رُفع إلى السماء، فعاش بين الملائكة وتغذي بتسبيحهم، حتى ظنوا أنه منهم لشدة اجتهاده.

* الخديعة الكبرى: مكث إبليس آلاف السنين (قيل سبعة آلاف سنة) يعبد الله مع الملائكة، حتى لُقب بـ "طاووس الملائكة" لبهائه وعبادته.

* الحقيقة الباطنة: كان إبليس "يمثل" دور الناسك، وفي داخله كبر مستتر وغلٌّ دفين، وهو ما سماه العلماء "الطبع الذي لا يغلبه التطبّع".

* القاعدة: (إذا كانت الطباعُ طباعَ سوءٍ.. فلا أدبٌ يُفيدُ ولا أديبُ) (2).

ثالثاً: التخطّي في حق "الغائب" (آدم قبل النفخ)

حين بدأ خلق آدم من طين، استغل إبليس الفرصة ليبدي ما في نفسه قبل أن يُنفخ في آدم الروح.

* الحدث: كان إبليس يطيف بجسد آدم وهو صلصال، يدخل من فمه ويخرج من دبره، ويقول للملائكة: "لا ترهبوا من هذا، فإنه أجوف، ولئن سُلطت عليه لأهلكنه".

* الدليل من السنة: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ» (3).

(1) تفسير الطبري وابن كثير (آية 30 البقرة): ذكروا أن الملائكة قاسوا حال الخليفة القادم على حال الجن الذين سكنوا الأرض قبله بـ "ألفي عام" وسفكوا الدماء. فكان قول الله {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} إشارة إلى أن في ذريته أنبياء وصالحين سيباهي بهم الملائكة لاحقاً.

(2) البداية والنهاية لابن كثير (قصة إبليس): يذكر أن إبليس كان من الجن (أصله مادي شهواني) لكنه تشبه بالملائكة (أصل نوري) في العبادة. وقد انخدع فيه الملائكة لصلاحه الظاهر، لكن الامتحان الإلهي (السجود) كان هو الكاشف لـ "الجمود الكبري" في نفسه.

(3) تخريج حديث (آدم الأجوف): أخرجه مسلم في "صحيحه" (رقم 2611).

* التفسير: قوله (خلقاً لا يتمالك) أي لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة. وهنا بدأت خطة إبليس لاستغلال "ضعف الإنسان"، وهو ما سنفصله في صفحات "المشهد التدريبي".

((ثانيا)): لحظة المكاشفة.. سجدةُ الطاعة وتمردُ "الجوهر الناري"

بعد آلاف السنين من "التمثيل" الإبليسي الذي خدع الملائكة حتى ظنوه منهم، جاء الاختبار الرباني الذي لا يُحابي أحداً، لتتجلى حقيقة {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} في أبهى صورها.

أولاً: كشف الغطاء عن "خبيئة" إبليس

كان الملائكة ينظرون إلى إبليس كقدوة في العبادة والاجتهاد، لكن الله سبحانه كان يعلم ما في "جوانحه" من استعلاء خفي على سائر الخلق.

* الحدث: نُفخت الروح في آدم، وصار بشراً سوياً، فجاء الأمر الإلهي الحاسم لكل سكان الملكوت: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [ص: 72].

* المكاشفة: سجد الملائكة أجمعون امتثالاً لأمر الله، بينما وقف إبليس "شاخصاً" في تمرده، ليس لأنه لم يفهم الأمر، بل لأنه "اعتقد" بطلان مبرر السجود (1).

ثانياً: فلسفة التمرد الإبليسي (أصل "المبرراتية" والاستبداد الفكري)

هنا بدأ إبليس يمارس أول عملية "تأليه للعقل" في الوجود، حيث قدم "قياسه العقلي الفاسد" على "النص الإلهي القاطع".

* المبرر الإبليسي: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [الأعراف: 12].

* التحليل: إبليس هنا يدعي "الأفضلية العرقية" (المادة)، متجاهلاً "التكريم الإلهي" (الروح). وهذا هو جذر كل استبداد وفخر مذموم (2).

ثالثاً: سقطة "طاووس الملائكة" وصدمة الملأ الأعلى

صُدم الملائكة بهذا الانفجار الكبري من إبليس الذي عايشوه سبعة آلاف سنة. لقد سقط القناع عن "الرباية الملكية" المزيفة، وظهر أن الطباع السوء لا يغيرها مجاورة الصالحين إذا لم يطهر القلب.

* النتيجة: طُرد إبليس من مقام المباهاة إلى مقام اللعنة: {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ} [ص: 77-78].

* الدرس: لم ينفعه أدب الملائكة ولا عشرتهم، لأن جوهره كان محتقراً لغيره، متخطياً في حق آدم قبل خلقه (3).

رابعاً: بيان سر {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}

بهذا المشهد، برهن الله للملائكة عملياً أن "الإفساد" ليس في الطبيعة البشرية وحدها، بل إن "الإفساد الأكبر" يكمن في "الكبر والتمرد العقلي" الذي جسده إبليس (الذي كان يُسبح معهم)، بينما هذا المخلوق الطيني (آدم) هو الذي سيحمل "سر العبودية" التي تستحق المباهاة (4).

(1) تفسير القرطبي (سورة البقرة): ذكر أن سجدة الملائكة كانت "سجدة تشريف وتكريم" لآدم، وطاعة مطلقة لله. والملائكة سجدوا لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، بينما امتنع إبليس لأنه ظن أن الله أخطأ (تعالى الله عن ذلك) في تفضيل آدم عليه.

(2) تفسير ابن كثير (سورة الأعراف): يوضح أن إبليس هو أول من استخدم "القياس" في مقابلة النص، وهو قياس فاسد؛ لأن النار تحرق وتدمر، والطين يبني وينبت، فالطين خير من النار في باب النفع والبناء.

(3) كتاب "البداية والنهاية" (قصة خلق آدم): يروي ابن كثير عن ابن عباس أن إبليس كان يسمى "عزازيل"، وكان من أشد الجن اجتهاداً، فلما أُمر بالسجود ظهر ما كان يبطنه من الحسد لآدم. وهذا يثبت القاعدة: (إذا كانت الطباعُ طباعَ سوءٍ.. فلا أدبٌ يُفيدُ ولا أديبُ).

(4) تفسير الطبري (آية 30 البقرة): قوله {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} كان يشمل علم الله بخبث إبليس وعلم الله بصدق توبة آدم لاحقاً. فالمباهاة الإلهية بالبشر هي "نكاية" في إبليس الذي ادعى أن هذا المخلوق لا خير فيه.

((ثالثا)): المشهد التدريبي في الجنة.. ثغرة الشهوة وانكسار العبودية

لم يكن دخول آدم الجنة لمجرد النعيم، بل كان "دورة تدريبية" عليا لإعداد الخليفة لمواجهة عدوه اللدود الذي أقسم على غوايته. هنا نرى كيف حاول إبليس استرداد "مكانته" المحطمة عبر تحطيم آدم.

أولاً: آدم في "مدرسة الملكوت" (تعليم الأسماء)

قبل المواجهة، سلح الله آدم بـ "العلم"، وهو السلاح الذي بسببه سجد له الملائكة وباهى الله به.

* الحدث: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ} [البقرة: 31].

* وجه المباهاة: عجز الملائكة عن العلم الذي أودعه الله في "عقل آدم"، فكان العلم هو أول مبررات الخلافة والتحرر من الجمود (1).

ثانياً: استراتيجية إبليس.. الضرب على "ثغرة الأجوف"

تذكر يا أسد ما قلناه في الصفحة الأولى عن إبليس حين طاف بآدم فرآه "أجوف". لقد أدرك إبليس أن مدخل هذا المخلوق هو "الرغبة" و"الخلود"، فاستخدم ضده "سلاح الفلسفة المبرراتية".

* الوسوسة: لم يقل إبليس لآدم "اعصِ الله"، بل قال له: {هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ} [طه: 120].

* الخديعة: أقسم لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين. وهنا انخدع آدم بـ "القسم"، لأنه لم يتخيل بعقله الطاهر أن أحداً يمكن أن "يحلف بالله كاذباً" (2).

ثالثاً: سقطة آدم وسقطة إبليس (الفارق بين العجز والكبر)

أكل آدم من الشجرة، فبدت لهما سوآتهما. وهنا ظهر الفارق الرهيب بين "طاووس الملائكة" المطرود وبين "آدم الخليفة":

* سقطة إبليس: مصدرها الكبر (أنا خير منه)، فرفض الاعتراف بالخطأ، فاستحق اللعنة الأبدية.

* سقطة آدم: مصدرها الشهوة والنسيان {فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}، فبادر بالانكسار والاعتراف.

* النتيجة: ذنب الكبر "استعلاء"، وذنب الشهوة "استخذاء" وانكسار للخالق (3).

رابعاً: سر المباهاة بالخاطئ التائب

لماذا يباهي الله بآدم وذريته رغم وقوعهم في الذنب؟

* الجواب: لأن آدم حين أخطأ لم "يجادل" ربه بعقله كما فعل إبليس، بل عاد إلى فطرته وقال: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: 23].

* الحقيقة: هذا الانكسار هو الذي استحق المباهاة؛ فالله يحب "أنين المذنبين" المستغفرين أكثر من "زجل المسبحين" المستكبرين (4)

(1) تفسير البغوي (سورة البقرة): ذكر أن تعليم الأسماء كان بياناً لفضل بني آدم بالعلم والقدرة على الاستنباط، وهو ما يميزهم عن الملائكة الذين يقفون عند حدود ما عُلِّموا.

(2) تفسير القرطبي (قصة آدم): يروى عن قتادة أن آدم ظن أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً، فخُدع بيمين إبليس. وهذا يوضح "النقاء الفطري" لآدم قبل أن تلوثه صراعات الأرض.

(3) كتاب "إغاثة اللهفان" لابن القيم: قارن بين ذنب إبليس وذنب آدم، موضحاً أن ذنب إبليس كان "منازعة للربوبية" (الكبر)، بينما ذنب آدم كان "ضعفاً بشرياً" (شهوة)، والتوبة تمحو أثر الشهوة لكنها لا تنفع مع الكبر المستقر.

(4) تفسير الطبري (سورة الأعراف): قوله تعالى {فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه}، هذه الكلمات هي "مفتاح العودة" الذي حرمه إبليس بسبب كبره، وبسببه استحق آدم أن يظل خليفة في الأرض ومحلاً للمباهاة الإلهية كلما عاد العبد لربه.

((رابعا)): هبوط الأرض.. صراعُ التمكين وتحريرُ العقل من "الوسواس الخنّاس"

لم يكن الهبوط إلى الأرض عقوبةً بقدر ما كان "انتقالاً للمهمة"؛ فآدم لم يُخلق للجنة أصلاً بل خُلق للأرض {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}. هنا نرى كيف تحول الصراع من "أروقة الملكوت" إلى "ميادين الحياة".

أولاً: إعلان الحرب (المشروع الإبليسي للاستبداد)

نزل إبليس ومعه "خطة منهجية" لمواجهة المباهاة الإلهية، تقوم على استغلال الضعف البشري لتحويل "الخليفة" إلى "عبد للمادة".

* الهدف الإبليسي: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: 16-17].

* فلسفة الغواية: إبليس يريد إثبات وجهة نظره للملائكة: أن هذا المخلوق "تافه" يبيع كرامته الإلهية مقابل شهوة عابرة أو خوف موهوم (1).

ثانياً: رعايةُ "الخليفة" بالوحي (أول خطوات التحرير)

لم يترك الله آدم وذريته نهباً لوساوس إبليس، بل أنزل معه "كتيب التشغيل" (المنهج) الذي يحرر عقله من التبعية للشيطان.

* الميثاق: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 38].

* الربط بالواقع: الهدى هنا هو "العاصم من الجمود"؛ فبقدر تمسك العبد بالوحي، يتحرر من استبداد إبليس، وبقدر جهله بالوحي، يسقط في فخ "التقليد" لخطوات الشيطان (2).

ثالثاً: مباهاة الله بالبشر وهم في "وحل الأرض"

لماذا يباهي الله بالبشر وهم يخطئون ويسفكون الدماء؟

* السر: لأن الملائكة يعبدون الله في "عالم النور" حيث لا مغريات ولا شياطين. أما البشر، فيعبدون الله وسط "ضجيج الشهوات" و"وساوس إبليس" و"ظلم الاستبداد".

* المعنى: مباهاة الله بمن "حرر عقله" واختار ربه رغماً عن إغراءات المادة؛ فالتسبيح وسط المعصية أعظم أثراً من التسبيح وسط القداسة (3).

رابعاً: تحطيمُ أسطورة "طاووس الملائكة" بالعمل الصالح

كان إبليس يظن أن "تربيته السماوية" تجعله يتفوق على آدم "الطيني"، لكن آدم أثبت أن "الصدق مع الله" والندم على الخطأ يرفعان الطين فوق النار.

* القاعدة: (إنّ العبدَ ليبلغُ بصدقِ لجوئِه إلى اللهِ ما لا يبلغه العابدُ بجمودِ عبادتِه). لقد انهار كبر إبليس أمام "دموع توبة" آدم

(1) تفسير القرطبي (سورة الأعراف): أوضح أن إبليس حين قال (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) أراد قطع طريق الهداية بكل الوسائل النفسية. وهذا هو أصل "الاستبداد الفكري"؛ حيث يسعى الشيطان (وأعوانه من الإنس) لصرف العقل عن التفكير في الخالق وربطه بالمحسوسات فقط.

(2) تفسير ابن كثير (سورة البقرة): (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)؛ الخوف مما يستقبل والحزن على ما مضى. والوحي هو الذي يحرر الإنسان من هذه القيود النفسية التي يستغلها المستبدون والملاحدة لإخضاع الناس.

(3) كتاب "الروح" لابن القيم: ذكر أن عبادة الآدميين مع وجود الصوارف والمجاهدة هي التي جعلت الله يأمر الملائكة بالسجود لآدم، وهي سر المباهاة الدائمة بأهل الذكر والصيام والجهاد، لأنهم آثروا المحبوب الأعلى على المحبوب الأدنى.

(4) تفسير الطبري (آية 38 البقرة): يذكر أن "الهدى" الذي نزل مع آدم هو الرسالات والأنبياء. وبدون هذا الهدى، يصبح العقل فريسة سهلة للجمود والتقليد

((خامسا)): المباهاة.. البرهانُ العملي على قوله تعالى {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}

إن المباهاة الإلهية بالبشر في مواطن الطاعة (كعرفات، ورمضان، ومجالس الذكر) ليست مجرد إشادة، بل هي "تحقيقٌ" وتصديقٌ للغيب الذي أخبر الله به ملائكته حين اعترضوا على خلق آدم. إنها اللحظة التي يقول فيها الحق لملائكته لسان الحال: "انظروا إلى ما كنتُ أعلمُ وأنتم تجهلون".

أولاً: كشف الغطاء عن "الخبيئة البشريّة"

عندما قال الملائكة: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}، كانوا ينظرون إلى "المادة" (الطين والشهوة) وقِياساً على "الجن". لكن الله كان ينظر إلى "الروح" والقابلية للترقي.

* تحقيق قوله {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}: يقول المفسرون إن الله علم أن من هذه الذرية من سيعبده "غيباً" دون أن يراه، ويخالف شهوته من أجله، ويصبر على كيد إبليس، وهذا مقام لم يبلغه الجن، والملائكة فيه مجبولون على الطاعة لا يجدون صوارفها (1).

ثانياً: المباهاة هي "الحجة" على الملائكة

في كل مرة ينزل الله فيها إلى السماء الدنيا ويباهي بأهل طاعة، فإنه يُذكر الملائكة بظنهم الأول.

* موقف عرفات أنموذجاً: حين يباهي الله بأهل عرفة قائلاً: «انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي أَتَوْنِي شُعْثًا غُبْرًا»، فكأن المعنى: هؤلاء هم الذين قلتم عنهم يسفكون الدماء، انظروا كيف تركوا ديارهم وأموالهم وتجردوا من ملابسهم وجاؤوا يرجون رحمتي (2).

ثالثاً: أقوال أئمة التفسير في معنى {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}

لقد استنبط المفسرون من هذه الآية أسراراً عظيمة تربطها بالمباهاة:

* قول قتادة ومجاهد: "علم الله أنه سيكون في تلك الذرية الأنبياء والرسل والصالحون وسكان الجنة، فاستحقوا الخلافة والمباهاة" (3).

* قول ابن كثير: "أي أعلمُ من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف ما لا تعلمون، فسيوجد منهم من يعبدني حق عبادتي، ويبذل مهجته في مرضاتي، فيباهي الله بهم الملائكة" (4).

* قول الطبري: "أعلمُ أن من ذريته من يطيعني، ومن يعصيني فيتوب، فتظهر فيهم آثار مغفرتي ورحمتي وعزتي" (5).

رابعاً: إسقاط "الاستبداد العقلي" للملائكة أمام الوحي

الملائكة استعملوا "القياس العقلي" (الجن أفسدوا إذن البشر سيفسدون)، فجاءت المباهاة لتعلمهم أن "الغيب الإلهي" أوسع من موازين العقل المحدود.

هذا هو جوهر "تحرير العقل"؛ ألا يحبس الإنسان نفسه في قيود القياسات المادية (الإلحاد أو الجمود)، بل يدرك أن فيه "نفخة إلهية" تجعله أهلاً لمباهاة الله به إذا تحرر من قبضة إبليس (6).

(1) تفسير القرطبي (سورة البقرة): ذكر أن الله تعالى لما قال للملائكة {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، كان يعلم أن فيهم "الصديقين والشهداء والزهاد"، وهم الذين تقع بهم المباهاة، لأنهم عبدوه مع وجود المنازع (الشهوة والشيطان)، بخلاف الملائكة.

(2) فتح الباري لابن حجر: في شرح أحاديث المباهاة، يربط الحافظ بين مباهاة الله بالعباد وبين قصة الخلق الأولى، معتبراً أن المباهاة هي "إظهار لفضل البشر" وتأكيد لصحة الاستخلاف أمام الملائكة.

(3) تفسير البغوي: يروي عن ابن عباس أن الملائكة لما قالوا ما قالوا، كان رد الله عليهم إشارة إلى "سر التوبة" و"لذة المجاهدة" التي لا يدركها الملائكة، وهي التي تستحق المباهاة.

(4) ابن كثير (البداية والنهاية): فصل في أن الله علم "فساد إبليس" الذي كان يظهر الصلاح، وعلم "صلاح آدم وذريته" الذين قد يظهر منهم الخطأ لكن قلوبهم معلقة بالخالق.

(5) جامع البيان للطبري: أكد أن {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} هي جملة شاملة لكل مقامات الاصطفاء والمباهاة

ا): المباهاة هنا هي "رد اعتبار" للجنس البشري أمام "طاووس الملائكة" (إبليس) الذي احتقر الطين، فجاءت أفعال الصائمين والمجاهدين لتثبت أن "الطين الصادق" خير من "النار المتكبرة".

((سادسا)): سقوط القناع.. قصة ابني آدم وجناية "الحسد الإبليسي"

بعد أن باهى الله بآدم في السماء، هبط إبليس للأرض وعينه على تحطيم هذا "البرهان" عبر إثبات أن هذه الذرية ستُفسد وتسفك الدماء كما ظن الملائكة. وكانت قصة "قابيل وهابيل" هي المحطة الأولى في محاولة "اغتيال الخلافة".

أولاً: تسلل "الداء القديم" (الحسد) من إبليس إلى قابيل

إبليس لم يبتكر سلاحاً جديداً، بل نقل "عدواه" التي طُرد بها من الجنة (الحسد) إلى قابيل.

* المشهد: قُرِّب القربان، فتقبل الله من هابيل (لإخلاصه) ولم يتقبل من قابيل (لجموده وسوء نيته).

* التحليل: هنا وقع قابيل في فخ "التقليد الإبليسي"؛ فبدلاً من أن يحاسب نفسه، استكبر وحسد أخاه، وقال: {لَأَقْتُلَنَّكَ}. لقد تحول "الخليفة" هنا إلى "أداة إبليسية" لسفك الدماء (1).

ثانياً: هابيل.. نموذج "العزة الإيمانية" في وجه الاستبداد

في مقابل طغيان قابيل، ظهر هابيل كأول "حر" يرفض الانجرار لمربع العنف الإبليسي، مفضلاً الموت على كسر ميثاق العبودية.

* الرد الصادم: {لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [المائدة: 28].

* وجه المباهاة: هنا باهى الله بـ "هابيل"؛ لأنه أثبت أن الإنسان يمكنه "كبح جماح غضبه" من أجل الله، وهذا ما لم يفعله إبليس (2).

ثالثاً: صراع "المادية" و"الروح" (لماذا سُفكت الدماء؟)

إبليس أراد من هذه الجريمة أن يقول للملائكة: "أرأيتم؟ لقد بدأوا بسفك الدماء كما توقعتم".

* الحقيقة: غفل إبليس (وغفلت الملائكة في ظنهم الأول) عن أن سفك الدماء من "قابيل" قد قابله "سمو وتضحية" من هابيل. فالمباهاة تقع على "هابيل" الذي تحرر من قيود الغريزة، لا على "قابيل" الذي سقط في قيود المادة.

* فلسفة الجريمة: كانت الجريمة إعلاناً عن ميلاد "الاستبداد" (فرض الإرادة بالقوة)، بينما كان موقف هابيل إعلاناً عن ميلاد "التحرر بالتقوى" (3).

رابعاً: الغراب.. المعلمُ الذي فضح "جمود" القاتل

حين قتل قابيل أخاه، وقف حائراً عاجزاً، فأرسل الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه.

* الدليل من القرآن: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ...} [المائدة: 31].

* الدرس: العقل المستكبر (قابيل) صار "أجمداً" وأقل ذكاءً من غراب، وهذه هي نتيجة "التقليد الإبليسي"؛ هبوط في المرتبة الوجودية حتى يسبقه الحيوان (4).

(1) تفسير ابن كثير (سورة المائدة): ذكر أن الحسد هو أول ذنب عُصي الله به في السماء (إبليس لآدم) وأول ذنب عُصي الله به في الأرض (قابيل لهابيل). وهذا يؤكد أن "الاستبداد" أصله مرض نفسي يعيق العقل عن العدل.

(2) تفسير الطبري: أوضح أن قول هابيل (إني أخاف الله رب العالمين) هو قمة "التحرر"؛ فالحر هو من يخاف الخالق فلا يظلم المخلوق، بينما المستبد (قابيل) هو عبد لهواه.

(3) كتاب "البداية والنهاية": يروي ابن كثير أثر هذه الجريمة في نفس آدم، وكيف تعاظم حزن الملائكة، فكان جواب الحق سبحانه أنَّ "هابيل" ومن يسير على نهجه هم حجة الله على خلقه، وبهم تتحقق المباهاة.

(4) التحليل الفكري : في محورنا "تسرب الاستبداد"، نعتبر جريمة قابيل هي أول عملية "قمع" للرأي الآخر وللحق، وهي تثبت أن إبليس يستخدم "العنف" لتعويض "عجز الحجة"، بينما الإيمان يستخدم "الصبر" لإثبات "قوة اليقين

((سابعا)): "فأروا الله من أنفسكم خيراً".. فلسفة التكريم وعروج الروح

بعد أن كشفنا زيف إبليس وتجاوزنا فتنة قابيل، نصل إلى جوهر مشروع الخلافة: لماذا طُلب من الإنسان "إظهار الخير"؟ وكيف يرتد هذا الإظهار مباهاةً في الملأ الأعلى؟

أولاً: نداء "أروا الله من أنفسكم خيراً" (قمة التكريم)

هذا النداء النبوي المستمد من المشيئة الإلهية هو اعترافٌ بـ "حرية الإرادة" الإنسانية. فالله لا يُكرهك على الطاعة، بل يدعوك دعوة الكريم لتعرض "بضاعتك" الإيمانية أمام عظمته.

* الفلسفة: أن يُطلب منك أن "تُري الله" منك خيراً، فهذا يعني أنك لست مجرد "ترس" في آلة، بل أنت "شريكٌ" في عمارة الكون بالحق. إنها دعوة للتحرر من "الجمود القدري" إلى "النشاط العبادي" (1).

ثانياً: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" (الغاية والميدان)

العبادة هنا ليست "سجناً"، بل هي "ميدان المباهاة". فإبليس عجز عن العبادة الصادقة لأنه رآها "قيداً" لكرامته الموهومة، بينما رآها آدم وذريته "تحريراً" لعقولهم من عبادة السوى.

* الربط بالخطة: العبادة هي التي تملأ "الفراغ الأجوف" الذي اكتشفه إبليس في آدم؛ فإذا امتلأ هذا الفراغ بنور الله، لم يجد الشيطان له مدخلاً (2).

ثالثاً: كيف نُري الله منا خيراً؟ (المجالات والدرجات)

هذا الميدان هو الذي يحقق قول الله للملائكة {إني أعلم ما لا تعلمون}، ويتجلى في ثلاث دوائر:

* دائرة الأوامر والنواهي (التحرر من الهوى): أن يرى اللهُ العبدَ حيث أمره، ويفتقده حيث نهاه. هذا "الانضباط" هو ردٌّ على دعوى "الإفساد وسفك الدماء"؛ فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

* دائرة النوافل (عشق العبودية): هنا يكمن سر المباهاة الأكبر.

* الدليل من السنة: في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ» (3).

* المعنى: النوافل هي "تطوع الحب"؛ فالفريضة "حق الخالق"، والنافلة "إكرام العبد"، وبها يُري العبدُ ربَّه من نفسه خيراً فوق المطلوب.

* دائرة الأخلاق والجمال: "إن الله جميل يحب الجمال". أن يرى الله من عبده طهارة القلب، وصدق الكلمة، ونصرة المظلوم (4).

رابعاً: ثمرة "رؤية الله للخير": مقام (حتى أحبه)

حين يرى الله من عبده خيراً، لا يكتفي بالمباهاة به، بل ينتقل به إلى مقام "المحبوبية الإلهية".

* التسلسل الملكوتي: إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: "إني أحب فلاناً فأحبه"، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.

* النتيجة: هذه هي العزة الإيمانية التي تحطم "الاستبداد الإبليسي"؛ فمن أحبه ملك الملوك، كيف يضره احتقار البشر أو تهميش المستبدين؟ (5)

(1) تخريج حديث (أروا الله من أنفسكم خيراً): سبق تخريجه في الصفحة الثالثة (أخرجه الطبراني عن عبادة بن الصامت).

* التفسير: قال المناوي في "فيض القدير": "أي ابذلوا ما في وسعكم من الطاعة، فإن الله يباهي بالمتنافسين ملائكته". وهذا يؤكد أن المباهاة هي ثمرة "الاجتهاد الاختياري".

(2) تفسير سورة الذاريات (56): {إلا ليعبدون}؛ قال ابن عباس: "إلا ليعرفون". فالمعرفة هي جوهر تحرير العقل، وبها يُري العبدُ ربه خيراً، لأن العقل العارف لا يسجد لصنم ولا يستكين لطاغية.

(3) تخريج حديث النوافل: أخرجه البخاري (رقم 6502) عن أبي هريرة.

* التفسير: قوله (حتى أحبه) هو غاية الغايات. المباهاة هي "إعلان" الحب، والحب هو "ثمرة" رؤية الخير في العبد.

(4) تفسير ابن القيم (مدارج السالكين): فصل في "منزلة العبودية"، أوضح أن "رؤية الله للخير من عبده" تكون بموافقة مراد الله حباً، لا خوفاً فقط. وهذا هو الفرق بين "عبودية الأحرار" و "عبودية الأرقاء".

(5) التحليلالفكري : في محور "تحرير العقل"، نرى أن عبارة (أروا الله من أنفسكم خيراً) هي أعظم مضاد لـ "اليأس والإلحاد"؛ فبدلاً من أن تسأل "لماذا خلقني الله؟"، أجب بالفعل: "سأريه من نفسي ما يستحق المباهاة".

((ثامنا)): نماذج المباهاة العملية.. كيف حقق الأصفياءُ برهانَ (إني أعلم ما لا تعلمون)؟

إن المباهاة الإلهية ليست مجرد نصوص نظرية، بل هي "واقع حي" تجسد في مواقف رجالٍ ونساءٍ كسروا قيود المادة، وهزموا استبداد النفس، وتحدوا كيد إبليس، فاستحقوا أن يُذكروا بالاسم والوصف في الملأ الأعلى.

أولاً: الأنبياء.. قمةُ التحرر من "الجمود والتقليد"

كل نبي هو "صرخة تحرير" للعقل من عبادة الأوثان والاستبداد، وهم الطلائع الذين أروا الله من أنفسهم خيراً في مواجهة الرفض الكوني.

* إبراهيم الخليل: حين أُلقي في النار، قال: "حسبي الله ونعم الوكيل". هنا باهى الله به الملائكة؛ فإنسان من طين يواجه النار باليقين، محطماً "الجمود المادي" (النار تحرق) بـ "الإيمان الغيبي" (الله ينقذ) (1).

* أيوب عليه السلام: حين فقد ماله وولده وجسده، لم يقل إلا "الحمد لله". أراد إبليس أن يثبت للملائكة أن أيوب يعبد الله لأجل النعمة، فباهى الله بصبره ليثبت أن عبوديته "جوهرية" لا "نفعية" (2).

ثانياً: الصحابة.. الجيلُ الذي أرى اللهَ من نفسه ما أدهش الملكوت

هذا الجيل هو الرد الحاسم على تساؤل الملائكة {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا}.

* موقف بدر: حين خرجت "الفئة القليلة" تواجه صناديد الكفر بصدور عارية. هنا نظر الله إليهم وباهى بهم، وقال: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». لقد أروا الله من أنفسهم "صدقاً" غسل دنس القرون (3).

* سعد بن معاذ: (الذي ذكرناه سابقاً) اهتز العرش لموته. الاهتزاز هنا هو "تفاعل كوني" مع مباهاة الله بعبدٍ نصر الحق في سنوات قليلة فعدل موازين الأرض.

ثالثاً: الشهداء.. الذين طهروا الأرض بدمائهم لا بسفك الدماء

الملائكة تخوفوا من "سفك الدماء"، فجاء الشهداء ليحولوا "الدم" من أداة إفساد (قابيل) إلى أداة "تطهير وقربان" (هابيل).

* الدليل من السنة: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبَاهِي مَلاَئِكَتَهُ بِالشَّابِّ الْعَابِدِ، يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، تَرَكَ شَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي» (4).

* المعنى: الشاب الذي يقاوم مغريات العصر المادي الملحد هو "حجة الله" المعاصرة على الملائكة.

رابعاً: عبادُ الخفاء.. مباهاةُ "الأجواف" التي امتلأت نوراً

إبليس قال عن آدم "إنه أجوف"، فجاء عباد الليل والذاكرون ليثبتوا أن هذا "الجوف" هو "عرشُ المعرفة الإلهية".

* المشهد: عبدٌ يقوم في جوف الليل، يترك الفراش (المادة) ليناجي ربه (الروح). هنا يضحك الله إليه ويباهي به ملائكته: "انظروا إلى عبدي، قام يصلي رغبةً فيما عندي ورهبةً مما عندي" (5).

(1) تفسير ابن كثير (سورة الأنبياء): ذكر أن جبريل عرض النصرة على إبراهيم وهو في الهواء، فقال: "أما إليك فلا". هذه هي قمة "تحرير العقل" من التعلق بالأسباب المباشرة للتعلق بمسبب الأسباب، وهو موضع مباهاة عظيمة.

(2) تفسير الطبري (قصة أيوب): يروي أن إبليس كان يطير في أقطار الأرض ليجد ثغرة في أيوب فلا يجد، فكان صبر أيوب "نكاية" في إبليس وتصديقاً لقوله {إني أعلم ما لا تعلمون}.

(3) تخريج حديث أهل بدر: أخرجه البخاري (3007) ومسلم (2494).

* التفسير: المباهاة بأهل بدر كانت بسبب "تجردهم"؛ فقد خرجوا لله لا للمغنم، فصاروا معياراً للخيرية.

(4) تخريج حديث الشاب العابد: أخرجه الإمام أحمد في "الزهد" وابن عدي في "الكامل".

* التفسير: خصَّ الشاب بالمباهاة لأن داعي الشهوة فيه أقوى، فإذا غلبه لأجل الله، كان ذلك برهاناً على أن "النفخة الإلهية" في الإنسان أقوى من "الطينة الصلصالية".

(5) كتاب "التبصرة" لابن الجوزي: فصل في "قيام الليل"، ذكر فيه أن الله يباهي بالمنفردين بذكره في وقت الغفلة، لأنهم أخلصوا الود، فاستحقوا التباهي أمام من قالوا {ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك}.

((تاسعا)): مباهاة الذات الإلهية بسيد الخلق في المحفل العلوي

لقد كانت رحلة المعراج هي الإعلان الإلهي الأسمى عن كمال "الخلافة الآدمية" في شخص محمد ﷺ، وهي الرد العملي والنهائي على تساؤل الملائكة القديم {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا}. فإذا كان الملائكة قد خافوا من "هبوط" الإنسان للأرض سفكاً للدماء، فقد أراد الله أن يريهم "عروج" الإنسان للسماء طهراً ونوراً، ليباهي به أهل السموات السبع وصولاً إلى سدرة المنتهى.

أولاً: حفاوة الاستقبال الملكي وفتح أبواب الغيب

لم تكن رحلة المعراج مجرد انتقال مكاني، بل كانت "موكب مباهاة" مهيب؛ ففي كل سماء كان جبريل عليه السلام يستفتح، فيُسأل: "أوقد بُعث إليه؟"، فيقول: "نعم"، فتقول الملائكة بحفاوة بالغة: "مرحباً به، فنعم المجيء جاء" (1).

* دلالة الحفاوة: فتح أبواب السموات التي لم تُفتح لبشر من قبل هو تعبير عن "الفرح الكوني" بهذا الكائن الطيني الذي ارتقى بالوحي حتى صار أطهر من النور. لقد باهى الله به سكان كل سماء، ليروا أن هذا هو "الخليفة" الذي تعلقت به المشيئة الإلهية.

ثانياً: تجاوز حدود "سردقات العرش" وتحجيم موازين المادة

باهى الله بنبيه ﷺ حين جعله يتخطى المقامات التي يقف عندها الوجود بأسره. فبينما تقف المادة والزمان والمكان عند حدود معينة، انطلق العقل المحمدي والروح المصطفوية لتجاوز "سردقات العرش" وحجب النور.

* المشهد المهيب: قطع النبي ﷺ المسافات على "البراق" أولاً، ثم "المعراج" ثانياً، وفي كل محطة كان يزداد تكريماً، ليعلم الملأ الأعلى أن هذا العبد الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق هو ذاته الذي يستحق أن تُطوى له حجب الملكوت مباهاةً وتشريفاً (2).

ثالثاً: مفارقة "التضخم" و"الاضمحلال" في حضرة الجليل

تتجلى عظمة المباهاة في المقارنة بين رؤيتين لجبريل عليه السلام، تُظهران تفاوت المراتب بين "الملكية" و"الآدمية المصطفاة":

* ليلة "اقرأ" (التضخم): حين رأى النبي ﷺ جبريل في غار حراء وله ستمائة جناح ساداً أفق السماء، كان ذلك في "بداية الترقي"، حيث كانت الهيبة للملَك النوري على البشر الطيني.

* ليلة "المعراج" (الاضمحلال): عند سدرة المنتهى، رأى النبي ﷺ جبريل "كالحلس البالي" (الكساء القديم) من خشية الله. هنا تغيرت الكفة؛ فالبشر الذي كان يرتجف في الغار، أصبح هو "المتقدم" بطلبه ومكانته، والملَك الذي كان يسد الأفق أصبح "متضائلاً" خاشعاً عند عتبات الجليل (3).

(1) تخريج حديث الاستفتاح: أخرجه البخاري (349) ومسلم (163) في حديث المعراج الطويل عن أنس بن مالك.

* التفسير: تكرار السؤال "أوقد بُعث إليه؟" وترحيب الملائكة في كل سماء هو إقرار بانتهاء زمن "التساؤل" عن جدوى خلق آدم، وبدء زمن "المباهاة" بسيد ولد آدم، حيث أظهرت الملائكة طاعة مطلقة وحباً لهذا القادم الجديد.

(2) تفسير سورة النجم: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ}. ذكر العلماء أن ثبات قلب النبي ﷺ وبصره في تلك المقامات العلوية هو موضع مباهاة؛ إذ لم تضطرب بشريته أمام عظمة الألوهية، بل ظل في مقام "العبودية الكاملة".

(3) تخريج وصف جبريل (كالحلس البالي): أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك.

* التفسير: اضمحلال جبريل عند سدرة المنتهى وتوقفه هو إعلان عن انتهاء "الواسطة"؛ فالمباهاة بلغت مداها حين خُصَّ النبي ﷺ بالدنو والتدلي وحده، ليعلم الملأ الأعلى أن "الإنسان الكامل" يسبق في القرب أرواح الملائكة المقربين.

: بلوغُ الغايات.. تخطي "المنتهى" وانفرادُ البشر بمقام الدنوّ

تتجلى في هذه المرحلة أسمى صور المباهاة الإلهية بالجنس البشري في ذات النبي ﷺ، حيث وصل "العبد" إلى نقطةٍ تجمدت عندها أنوار الملائكة، وانكسرت عندها قيود المادة، ليكون اللقاء المباشر بلا واسطة ولا ترجمان، برهاناً على أن هذا المخلوق "الخليفة" قد فاق بتكريم الله له كل موازين الملكوت.

أولاً: سدرة المنتهى.. حيث تقفُ مراتبُ الملائكة

وصل الموكب النبوي إلى "سدرة المنتهى"، وهي الحدود النهائية التي ينتهي إليها علم الخلائق، وعندها يقف جبريل عليه السلام، الروح الأمين، الذي طالما كان المعلم والموجه، ليعلن هنا عن "عجزه" وعن "سيادة" المصطفى ﷺ.

* المشهد: توقف جبريل عند السدرة، فنظر إليه النبي ﷺ وكأنه يستحثه على التقدم، فكان لسان حال جبريل يقول: "يا محمد، لو تقدمتُ أنا لاحترقتُ (بأنوار الجلال)، ولو تقدمتَ أنت لاخترقتَ (بإذن الكبير المتعال)".

* فلسفة المباهاة: هنا يُباهي الله ملائكته بعبدٍ بشريّ يتجاوز "الرتبة الملكية"؛ فجبريل رغم عظمته (نوريٌّ خُلق من نور) وقف، ومحمد رغم بشريته (طينةٌ شُرّفت بالروح) تقدم (1).

ثانياً: جبريل "الحلس البالي" وخشوع الرتبة الملكية

في هذه اللحظة، رأى النبي ﷺ جبريل على حقيقته للمرة الثانية، لكن شتان بين الرؤيتين؛ فإذا كان في الأولى (ليلة اقرأ) قد رآه في صورة "المسيطر" الذي يضم النبي حتى يبلغ منه الجهد، فإنه هنا رآه في مقام "الاضمحلال" والذوبان هيبةً وإجلالاً.

* الاضمحلال على العتبات: ذاب جبريل وتضاءل حتى صار "كالحلس البالي" (الكساء الرقيق الملقى على الأرض) من هيبة الجبار. هذه الرؤية كانت "مكافأة" لآدم وذريته؛ ليروا أن عظيم الملائكة ينكسر عند حدود لا ينكسر عندها "المحبوب" محمد ﷺ (2).

ثالثاً: التقدم المنفرد.. "تقدم أنت يا محمد"

صدر الأمر الإلهي والنداء العلي: "تقدم أنت يا محمد". هنا انفصل العبد عن الواسطة، وانفرد الإنسان بخالقه في مشهدٍ حبست فيه السموات أنفاسها.

* تجاوز الحُجب: قطع النبي ﷺ سبعين ألف حجاب من نور وظلمة، وفي كل حجاب كان يسمع صرير الأقلام، وهو يتقدم بثبات "العبد الواثق" بربه، مباهياً بعبوديته كل ما سواه.

* السر الحضاري: هذا التقدم هو "تحرير" نهائي للعقل البشري من التبعية لأي وسيط مخلوق مهما علت رتبته؛ فالعلاقة بين "الخليفة" و"المستخلف" هي علاقة مباشرة، تتلاشى فيها مراتب الملائكة ليبقى "الإنسان الكامل" في حضرة "الخالق الواحد" (3).

(1) تفسير سورة النجم {عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ}: ذكر الإمام البغوي أن السدرة سميت بـ "المنتهى" لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض وما يهبط من فوقها، وعندها ينتهي علم الملائكة. ووقوف جبريل عندها هو إقرارٌ بأن المقام الذي بلغه محمد ﷺ هو مقام "الخصوصية المطلقة" التي لا يشاركه فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل.

(2) تخريج أثر (جبريل كالحلس البالي): أخرجه الطبراني وابن أبي عاصم في "السنة".

* التفسير: الحلس هو الكساء الذي يوضع على ظهر البعير تحت البرذعة، وشبهه به لشدة لصوقه بالأرض وتواضعه.
والمباهاة هنا تكمن في أن النبي ﷺ رأى "عظمة الله" في "خضوع جبريل"، ورأى "تكريم الله" في "إذنه له بالتقدم"، فجمع بين شهود الجلال وشهود الإكرام.

(3) كتاب "الشفاء" للقاضي عياض: فصل في "تفضيله ﷺ بالمعراج ومناجاته"، أوضح فيه أن انفراد النبي ﷺ بالتقدم بعد توقف جبريل هو أعظم دليل على شرف جنس "بني آدم" إذا ما كملت فيهم العبودية، وهو البرهان القاطع على قوله {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، إذ كيف يكون مفسداً وسافكاً للدماء من بلغت روحه هذا المقام الطاهر؟

في هذه الغاية القصيرة والمقام الأسنى، يكتمل مشهد المباهاة الإلهية، حيث يبلغ "العبد" مبلغه الذي لم يطأه أحدٌ قبله، ليكون النبي ﷺ في تلك اللحظة هو الترجمة الحية لكرامة بني آدم، والشهادة القاطعة على عجز الملائكة عن إدراك سر الاصطفاء البشري.

أولاً: قاب قوسين أو أدنى (سقوط الوسائط)

بعد أن تخلف جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى واضمحل هيبةً، انطلق المصطفى ﷺ في رحاب الأنوار الصرفة، حيث سكنت الأصوات وانقطعت الإشارات، وبقي العبد مع المعبود بلا ترجمان.

* المشهد: نُصب له "الرفرف" الأخضر، فرفع النبي ﷺ إلى مقام الدنوّ والتدلي، حيث خاطب الجليلُ عبده بغير واسطة.

* الدليل من القرآن: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ} [النجم: 8-10].

* سر المباهاة: المباهاة هنا بلغت مداها؛ فالله الذي قال للملائكة {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، كشف لهم الآن أن هذا "البشر" الذي خافوا منه هو الوحيد الذي استحمل "أنوار الذات"، بينما توارت الملائكة خلف حجب السدرة (1).

ثانياً: تثبيت مقام العبودية في أوج الرفعة

في اللحظة التي تجاوز فيها النبي ﷺ حدود الخلائق، لقبه الله بلقب "العبد" {فأوحى إلى عبده}، ولم يلقبه بالنبي أو الرسول.

* الحكمة: ليعلم الملأ الأعلى أن "العبودية لله" هي أعلى مراتب الحرية والتحرر، وهي الميدان الذي بسببه باهى الله بآدم. فكلما ازداد الإنسان خضوعاً لخالقه، ازداد عروجاً في مقامات التكريم.

* مواجهة الاستبداد: هذا المقام يرسخ أن السيادة المطلقة لله وحده، وأن "الإنسان" مهما علا قدره يظل عبداً، مما يحطم جذور "تأليه العقل" أو "تأليه الحكام" (2).

ثالثاً: العودةُ بـ "الهدايا" (الصلاة ميزان المباهاة)

لم يرجع النبي ﷺ من هذا العروج العالي بنفسه فقط، بل رجع بـ "الصلاة"، وهي "معراج المؤمنين" اليومي وميدان مباهاتهم المستمر.

* الربط بالواقع: كلما سجد المؤمن في صلاته، فهو يمارس "معراجاً روحياً" يحاكي به تقدم نبيه ﷺ. والصلاة هي الأداة التي نُري بها الله من أنفسنا خيراً، وهي الرد العملي الذي يرفعه الملائكة يومياً إلى الله ليثبتوا مباهاة الله بنا (3).

رابعاً: انحسارُ "القياس الملكي" أمام "الاختيار البشري"

انتهى المشهد المعراجي بانتصار كلي لمشروع "الخلافة الآدمية"؛ فبينما كانت الملائكة في الصفحة الأولى (من هذا المحور) يتساءلون باستغراب {أَتَجْعَلُ فِيهَا}، صاروا في المعراج يتسابقون للترحيب {مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح}.

* الخلاصة: إن عروج محمد ﷺ هو "تحريرٌ كوني" للعقل البشري، وإثباتٌ لأن "الطينة الآدمية" إذا اتصلت بالوحي، أصبحت أطهر من الأنوار الملكية، وأجدر بمباهاة رب البرية (4).

(1) تفسير سورة النجم {قاب قوسين}: ذكر ابن عباس أن "الدنو والتدلي" في الآية هو دنو النبي ﷺ من ربه عز وجل وتجليه له. وهذا القرب هو غاية التكريم الذي أخفاه الله عن الملائكة يوم خلق آدم وأظهره لهم ليلة المعراج مباهاةً.

(2) كتاب "المواهب اللدنية" للقسطلاني: أوضح أن ذكر وصف "العبودية" في أرفع مقامات التجلي (المعراج) هو رد على كل من قد يدعي في البشر صفات الألوهية، وهو تأكيد على أن سر العظمة في "الافتقار إلى الله".

(3) تخريج حديث (الصلاة معراج المؤمن): وهو معنى مستفيض في كتب السلوك، وأصله من قول النبي ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ» (أخرجه مسلم رقم 482).

* التفسير: السجود في الأرض هو مكافئ للدنو في السماء، وبه يحقق المؤمن مقام المباهاة الذي حققه نبيه ﷺ.

(4) يمثل المعراج قمة "اللا جمود"؛ فالعقل المحمدي لم يقف عند حدود الحس والمادة، بل انطلق في عالم الغيب المطلق، محطماً قيود "الفلسفات المادية" التي تحبس الإنسان في طينته، ومثبتاً أن الإنسان "كائن ملكوتي" مكلف بعمارة الأرض بروح السماء.

((عاشراً:)) معركة العصر.. كيف نُري الله منا خيراً وسط قيود الإلحاد والاستبداد؟

إن معركتنا اليوم ليست معركة "حدود" بل هي معركة "وجود"، وهي الاختبار الأكبر لتحقيق مباهاة الله بنا أمام الملائكة. فإذا كان الملائكة قد تعجبوا من خلقنا، فإن ثباتنا اليوم على "التوحيد" وسط ضجيج الإلحاد، وعلى "الحرية" وسط أغلال الاستبداد، هو أعظم ما نُري الله به من أنفسنا خيراً.

1. فقه الواقع: تشخيص قيود العصر

نعيش اليوم في زمن "الذرة" التي فجرت المادة ولكنها حبست الروح، وفي ظل منظومة عالمية تقوم على:

* قيود الإلحاد: التي تريد "تحويل الإنسان إلى حيوان استهلاكي" بلا غيب.

* قيود الاستبداد: التي تريد "تأليه الحاكم" وتحطيم كرامة "الخليفة" في الأرض.

* المخرج من الأزمة: هو إدراك أن "تحرير العقل" يبدأ من كسر هيبة هؤلاء في القلب، واليقين بأن العزة لله جميعاً (1).

2. واجب الوقت: الربط السداسي (المنظومة المتكاملة)

لن نُري الله منا خيراً بالعبادات الشعائرية الجوفاء وحدهما، بل بـ "الربط المقدس" بين ستة أركان:

* الإيمان والعلم: عقلٌ يقرأ الوحي وعينٌ تقرأ الذرة والمختبر (لا انفصال بين الخالق وخلقه).

* العمل والإخلاص: حركةٌ دؤوبة في الأرض، لكن بوصلتها في السماء (لا رياء ولا كسل).

* الجهاد والاجتهاد: جهادٌ لدفع الظلم والاستبداد، واجتهادٌ عقلي لكسر الجمود والتقليد.

* الجهد والأخلاق: بذل أقصى الطاقة مع التزام الطهر، فلا غاية تبرر الوسيلة (2).

3. فلسفة التحرير: التراتبية الربانية

إن الخطأ التاريخي الذي نقع فيه هو محاولة تحرير "الجغرافيا" قبل "الإنسان"، بينما المنهج القرآني واضح:

* تحرير القلوب قبل الأبدان: القلب الذي يخشى الطاغية لا يمكنه أن يحرر وطناً.

* تحرير الأرواح قبل الماديات: الروح التي تستقي عزتها من مباهاة الله بها، لا تنكسر أمام التفوق المادي للعدو.

* تحرير الإنسان قبل القدس: القدس لا يحررها "عبيد" بل "عباد" {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا}؛ فالتحرير يبدأ من داخل الإنسان أولاً (3).

4. المباهاة المعاصرة: الثبات على الحق

إن المؤمن الذي يرفض الرشوة في زمن الجوع، والشاب الذي يتمسك بالعفة في زمن الفاحشة، والمفكر الذي يصدع بالحق في وجه المستبد، هم الذين يُباهي الله بهم الآن ملائكته، قائلاً: "انظروا إلى عبادي، تركتهم في عصر الفتن والمادة، فاستمسكوا بعهدي ولم يبيعوا دينهم بعرض من الدنيا" (4).

(1) فقه الواقع : الاستبداد والإلحاد وجهان لعملة واحدة؛ كلاهما يهدف إلى "حجب العقل عن الخالق". الاستبداد يحجبك بـ "الخوف من المخلوق"، والإلحاد يحجبك بـ "الغرور بالمادة". والتحرر منهما هو جوهر التوحيد.

(2) تفسير سورة العنكبوت {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}: الجهاد هنا يشمل جهاد النفس، والعلم، والسلاح، والكلمة. والجمع بين "الجهد والأخلاق" هو ما يميز "الخليفة" عن "المفسد في الأرض".

(3) المنهج الإصلاحي: يقول الإمام مالك: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها". وأولها صلح بـ "تحرير الإنسان" من عبادة العباد، فملكوا الدنيا. ومباهاة الله بنا اليوم مشروطة بعودتنا لهذا الأصل.

(4) تخريج حديث القابض على دينه: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ» (أخرجه الترمذي).

* التفسير: هذا "القبض على الجمر" هو أعلى مقامات المباهاة في عصرنا، لأنه صبرٌ مع وجود المشقة وضعف الناصر، وهو الذي يبرهن صدق {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.